المشرق

رسول الصحراء

الاب شرل دي فوكو

لحضرة الاب فردينان توتل اليسوعيّ

المقدمة

انّ بين السوريين والافرنسيين صداقةً يرقى عهدها الى العصور الوسطى فوشجت بين العنصرين منذ شرلمان في القرن التاسع للميلاد الى لويس الرابع عشر اواصرُ لم تزل تزيد توثّقاً الى ايام نابوليون الاوّل والثالث حتى يومنا هذا حيث بلغت غايتها بما عُهد الى مرسة من الانتداب على سوريّة واهلها. والحقّ يقال انّ فرنسة اصابت في كلّ آن المقام الممتاز بين سائر الامم في حبّها لبلادنا حتى شاع على ألسنة اهل مواطنينا انّ الافرنسيين لأقرب الاجانب منّا بل كدنا لا نعدّهم غرباء في اقطارنا لاسيما منذ رأينا في قوّادهم وكبار موظّفيهم من الاستقامة والعدل والدفاع عن حقوقنا ما استأسر قلوبنا وسبى عقولنا. وليس كلامنا هنا عن بعض الافراد الذين شذّوا عن سُنَن الكرامة ولستسلموا الى اهوائهم اذ لا تخلو أمّةٌ في الكون الّا وبينها بعض ذوي الغايات السافلة والاخلاق الرديئة فما علينا الّا ان نتعرّف بالافرنسي الحقيقي ونفرق بحسن نظرنا بين الغثّ والسمين وبين الخرز والدرّ فلا نكتفي بالاحتكاك الخارجي السطحيّ بل نسعى بالولوج الى بواطنهم حتى اذا ادركنا كرم شيمهم وشرف

نفوسهم زاد اعجابنا بها(١) فتتقرّب القلوب وتتّحد النيات وتتضافر المساعي في سبيل الخير العام

وهذا ما حدا بنا الى ان نعرض على قرّاء المشرق مثالًا حديثاً من حياة رجل شريف يُدعى شرل دي فوكو استغواهُ الشيطان في مبعة شبابهِ بالاماني الكاذبة فما لبث ان اهتدى الى الصلاح فاحبَّ اولًا ان يبذل ذاتهُ في خدمة وطنهِ بصفة ضابط فحلّت في عينهِ تضحيـة نفسهِ فلم يزل يطلب مـا هو ارفع واسمى حتى بلغ قمّة الكمال المسيحي وتاق الى الاستشهاد في خدمة النفوس . ومعظم استنـادنا في هذه النبذة التاريخية الى ترجمة حياة ذاك البطل بقلم احد مشاهير الكتبة رينه بازن من اعضاء الاكادمية الفرنسويّة الذي يتهافت الناس على كتاباته لما يرون فيها من حسن الذوق وبلاغة الانشاء وصدق اللهجة معاً (٢)

على انَّ من درس اخلاق الافرنسيين وتقاليدهم وامعن النظر في تاريخهم وآدابهم يرى لاوّل وهلةٍ في دي فوكو مثالًا حيًّا يمثّل طباع امّتهِ الكريمة ومزاياهـا الفريدة فيحبّبها الينا ولاسيما انهُ عاش بضع سنوات في بلادنا وفي بلاد تشبهُ بلادنا بلغتهـا وعوائدها ودين السواد الاعظم من اهلهـا وهو يستنفـد القوى في دعوتهم الى الله وكسر اغلال النفوس اسيرة شهواتها واوهامها الباطلة ليمهّد الطريق لمن يأتي بعـدهُ من المبشرين . فكان «كالصوت الصارخ في البرّيّة أعدّوا طريق الربّ واجعلوا سبلـهُ قويمة» (متى ٣ : ٣) فيا ليت ذكرى حياتهِ وتعاليمهِ تضرم النعرة في قلوب الرسلين في البلاد العربيّة ليجروا على آثارهِ ويحصدوا فرح ما زرعهُ في الدموع

١ سني الصبا والجهالات

ولد شرل دي فوكو من اسرة شريفـة في ستراسبورغ سنة ١٨٥٨ ورضع مع الحليب روح الدين والتقى لكنَّهُ لم يبلغ السادسة من عمرهِ اذ اختطفت يد المنون حياة والدَيه وامسى رهينة وصاية جدّهِ المسيو دي موريل الكولونيل في فرقة مهندسي الجيش وكان هذا رجلًا صالحاً حيّ الايمان لولا انَّ واجبات مهنتهِ ادّت بهِ الى التساهل

(١) اطلب ترجمة لويزة دي فرنس في عدد أيار من المشرق بقلم الاب رفائيل نخله

(٢) هذا عنوان الكتاب René Bazin de l'Académie Française: Charles de Foucauld, explorateur du Maroc, Ermite du Sahara

في تربية حفيده وغضّ النظر عن نقائصه التي قويت وتأصّلت في قلبه فاصبحت رذائل وخيمة العقبى

وكان اوّل تهذيبه في مدرسة نانسي العلمانيّة فنالهُ شيءٌ من روح اساتذتها وتعليمها اللادينيّ ثمّ انتقل الى مدرسة الآباء اليسوعيين الشهيرة في باريس التي يستعدُّ فيها نخبة شبّان فرنسة ليدخلوا في المكاتب العليا فيترشّحوا للمناصب العسكرية البرّية والبحريّة والمدنيّة في سان سير وپوليتكنيك وسانترال لكنّ معلّميه استاءوا من سلوكه فاغتنموا فرصة بعض انحراف في صحّته ليصرفوهُ سرًّا من المدرسة حفظاً على آدابها وكرامته معاً . وكان شرل يتذكّر بعد ذلك سنين شبابه وينسب تهوّرهُ في المآثم الى ما وجدهُ في نانسي من الحرّيّة السيّئة في مطالعة الكتب المعادية للدين والآداب فيحذّر الناشئة من اخطارها وسوء عقباها كما انّهُ كان يشكو من تعاليم اساتذته العلمانيين الذين افقدوهُ راحة قلبه بما نفثوهُ في نفسه من الاعتراضات على الدين باسم العلم الكاذب . وكان لو أراد يمكنهُ ان يحلّ تلك المشاكل بمطالعة تفنيدها وتزييف سفسطتها في كتب جهابذة الدين واساطين العلم الصحيح لكنّ اهواء قلبه أغشت على بصره فاطلق العنان الى شهواته

على انّ السنين القليلة التي صرفها في مدرسة القديسة جنفياف للآباء اليسوعيين في باريس لم تذهب ضياعاً حيث أثّر فيه مثل اولئك الرهبان الجامعين بين الفضل والفضيلة والعلم والدين وبقي طول حياته حتى في أيّام جهالاته مدمناً على اكرامهم . لا بل كان يحسب ما طرق مسامعهُ هناك من المبادئ الصحيحة كاحد العوامل التي انهضتهُ من كبوته واقالت عثرته

لكنّ شرل لم يستهدِ الّا بعد عدّة سنين وكان مع تهاونه في الدروس امكنهُ ان ينجح في الامتحان المؤذن بالدخول الى سان سير وهو اوسع معاهد فرنسة العليا لكنّهُ زاد هناك صلفاً واستهتاراً لم يهنهُ الّا ارتشاف كاس اللذّات وانتهاك حرمة الآداب حتى اضطرّ احد اقربائه ووصيُّ المسيو موآتسيه (Moitessier) ان يقيم عليه مراقباً شرعيّاً يمنعهُ عن تبذير ماله بالاسراف

٢ الضابط

تعيّن دي فوكو بعد خروجه من سان سير ملازماً اوّل في فرقة الفرسان الرابعة

(Hussard ٥ه) وأمر ان يسافر مع رجاله الى سَتيف احدى مدن الجزائر في افريقية فانتقل اليها لكنَّهُ بقي مثابراً على سوء سيرته وكان رؤساؤهُ يوبخونهُ بلطف عن تصرُّفهِ فلم يُصغِ الى كلامهم حتى خشوا ان يسري داؤهُ الى الجنود فخيَّروهُ اما ان يُطلق سراح المومسة التي استصحبها من فرنسة واما ان يقدِّم استعفاءهُ من الجيش ففضَّل الاستعفاء موقتاً وغادر افريقية وسكن في ايفان من اعمال سائوا

اقام مخفي عليهِ هناك اشهر حتى بلغهُ الخبر انَّ فرقة فرسانهِ عُهد اليها ان تسير الى بلاد وهران الجنوبيَّة لردّ غارات الاعداء عليها . فكان لهذا النبأ اشدُّ وقع على نفسهِ ولم يشأ ان يرى جنودهُ دماءهم في سبيل الوطن دون ان يشاطرهم الاخطار وينال معهم نصيبهُ من الشرف

فطلب ان يعود الى مركزهِ وكان في مقدَّمة الفرسان الذين ساروا الى ساحة الحرب . فمذ ذاك الحين اصبح شرل دي فوكو انساناً جديداً هجر الترف والملاذَّ الباطلة وظهر في هيأة جندي باسل لا يبالي بالمصاعب ويسخر بالمتاعب يقود جندهُ بدراية وفطنة ويبذل نفسهُ دون راحتهم ويخفف عنهم اعباء الخدمة طاقة جهدهِ حتى اكتسب محبَّتهم واحرز اعجابهم . فكأنَّ صوت الوطن استفزَّهُ ليشر راية دولتهِ على تلك الانحاء ويمدِّن اهلها بمدنيَّة بلادهِ الراقية

على انَّ اختلاطهُ بالعرب سكَّان تلك البوادي المقفرة ونظرهُ لاحوالهم الدينيَّة والمدنيَّة اثار في نفسهِ رغبة التقرُّب اليهم والبحث عن عوائدهم وتقاليدهم والتوغل في فلواتهم المقفرة وديارهم المأهولة وذلك رغبة ان يُغني الجغرافيَّة بمعلومات جديدة ويمهد السبيل للنفوذ الفرنسي في بلاد لم يطأها اجنبيٌّ بعد وبذلك يدَّخر لنفسهِ سمعةً تليق باجدادهِ الكرام لكنَّهُ ثبت في منصبهِ ريثما تهدأ الامور ويعود السلم الى نصابهِ

٣ السرائر

فالتمس شرل من وزارة الحرب ان تُعطى لهُ فرصة يتنحَّى فيها عن الجيش ليقوم بمهمتهِ هذه ويحقِّق امانيهُ . لكنَّ الوزارة لم تُجب الى طلبتهِ فاستقال نهائياً من وظيفتهِ وطفق يبحث عن وسيلة ليُخرج فكرهُ الى حيز الوجود وذلك بان يتجوَّل في انحاء بلاد مراكش ويجمع عن احوالها ما استطاع من الافادات حيث لم يكن سبقهُ احدٌ

بعدُ الى استثبات امور تلك البلاد ووَصْفها وصفاً مدقّقاً . لكنّهُ عرف ما يحول دون عزيمتهِ من الاخطار الجمّة فما كانت تلك المعرفة لتزيدهُ الّا ثباتاً على قصدهِ . وكان اوّل ما اتّفق عليهِ رأيهُ ان يسير الى داخليّة مرّاكش على غير الطريق التي كان يسلكها السفراء من جهة الساحل لأمنها فعوّل على السير في اواسط البلاد ليطّلع على مجاهلها وكشف اسرارها

ثمّ اخذ يتكبّ على درس العربيّة ومطالعة ما كتبهُ العلماء عن مرّاكش واستشارة الرجال ذوي الخبرة في شؤون تلك البلاد استعداداً لرحلتهِ وجهّز لهُ من الادوات الهندسيّة والآلات الرصديّة الخفيفة ما امكن لتدوين ملحوظاتهِ

واذ تحقّق انهُ لا ندحة لهُ للتوغّل في تلك البلاد الّا بزي اهلها العرب المسلمين او اليهود فضّل على الزيّ الاسلامي الذي كان تزيّا بهِ بعض الرحّالين قبلهُ كرينه كالييه (R. Caillie) وروهلس (Rohls) ولنز (Lenz) ملابسَ اليهود الساكنين في جهات مرّاكش فتردّى بقميص طويل فوقهُ جلابيّة قصيرة الكمّين واحتذى بنعل اسود وجعل على رأسهِ قبعة حمراء معمّمة بقطعة حرير اسود . وكان يعلم ان زيّهُ هذا يعرّضهُ لسخريّة العرب المسلمين المزدرين باليهود الّا انهُ أمّل بتنكّرهِ المذكور نجاح مسعاهُ ثمّ اتّخذ لهُ رفيقاً ودليلاً لسفرهِ ربّانيّاً يهوديّاً يُدعى مردكاي ابا سرور كان سافر قبل ذلك في الخاء مرّاكش فاستكتمهُ حقيقة امرهِ واطمعهُ بأجرة حسنة فرضي برافقته . واتّفق معهُ بان يدعوهُ ربّي يوسف علمان من مهاجري روسيّة واحد زوّار اورشليم قدم الى مراكش بصفة سانح يجمع الحسنات لاهل جلدتهِ

٤ . رحلة شرل دي فوكو الى داخل مراكش

خرج دي فوكو مع رفيقهِ من مدينة الجزائر في ١٠ حزيران سنة ١٨٨٣ فرّا بوهران فتلمسان وبلغا طنجة في ٢٠ حزيران . فهناك تجشّم لرحلتهُ الى اواسط مرّاكش فدامت احد عشر شهراً الى ٢٣ أيار ١٨٨٤ فسار اوّلاً على طريق فاس وكان يعرّج الى المدن التي يريد البحث عن احوالها فدخل طيطوان وششاون وتجوّل في جبال بني حسن . وكان حيثما يحلّ ينزل مع رفيقهِ في كنيس اليهود ولا يلبث ان ينفرد في مكان معتزل ويستخرج ادواتهِ كالحكّ (الابرة المغناطيسيّة) وميزان الحرارة وثقل

الهواء واقيسة أعراض البلاد وأطوالها وعلوّها فيدوّن نتيجة ارصاده في مذكّرة خاصّة ثم يضيف اليها ملحوظاته عن حالة البلاد واهلها . وكان مردكاي يقوم في خدمته ليمنع الناس عن اقلاقه وتشويش شغله

ثم انتقل السائح الى فاس فقضى فيها شهر آب وافتقد نواحيها وروى ما رآهُ اهلًا بالذكر عنها وعن سكّانها واحوالهم الادبيّة والدينيّة . ثم رحل الى مكانس وبلغ «بو الجاد» حيث احتفى به الحاج طيب قسوس ولاسيّما سيدي حاج ادريس الذي وقف على حقيقة امره فاكرمهُ وسار في رفقته الى قصبة بني ملّال ثمّ الى تادلة . ثمّ دخل من هناك بلاد الصحراء جنوبيّ مراكش فمرّ بتيكرت وسار بسفح جبال الاطلس ووصل الى طنزيدا ثمّ توجّه الى شواطئ بحر الاتلنتيك وقطع واحات تيسنت وزار مدينتها وشكر اهلها لحسن ضيافتهم ووجد في احدهم الحاج «بو ريم» صديقًا مخلصًا انقذهُ من ايدي بعض الاشقياء ورافقهُ الى وادي سوس جنوبي اغادير ثمّ عاد الى الجزائر على طريق جديدة فوصف مدن طازنخت ومستيطة ودادس وقصبة الشرفاء ودَبدو وأُرجّة

وقد قاسى شرل دي فوكو في رحلته هذه من المشقّات والاتعاب ما يصعب وصفهُ فكثيرًا ما كان ينفرش الحضيض ويتضوّر جوعًا وكاد غير مرّة يسقط في ايدي قبائل همجيّة وعُصب من صعاليك العرب فمنهم من نهبهُ ومنهم من تهدّدوهُ بالموت فنجا من ايديهم بعناية خاصّة من الله وكان رفيقه مردكاي جبانًا بليدًا قليل المروّة أصح له في اثناء رحلته عبئًا ثقيلًا حتى انهُ تركهُ غير مرّة فسافر الى بعض الجهات مع غيره من اهل البلاد ثم يعود فيأخذهُ عند عودته

امّا نتيجة هذه الرحلة فكانت بالغة بما افاده دي فوكو للجمعيّات الجغرافيّة فانّ هذا الرجل المقدام ما لبث أن جمع كلّ معلوماته وتفاصيل رحلته فنشرها تحت هذا العنوان (Reconnaissance au Maroc) فكان لكتابه هذا سمعةٌ طيّبة فأقبل على مطالعته كلّ الباحثين عن مجاهل افريقية . ودونك ما قالهُ احد اعضاء جمعيّة باريس للسيو دوفرييه (Duveyrier) الذي كان سبقهُ الى بعض تلك الاقطار واختبر مشقّاتها :

« انّ التيكونت دي فوكو في خلال احد عشر شهرًا من ٢٠ حزيران ١٨٨٣ الى ٣٣ ايّار ١٨٨٤ قد قطع مسافةً توازي ضعف المسافة التي جاءها قبلهُ الكشّافون في مراكش فقطع ٢٢٥٠ كيلومترًا لم يسلكها قبلهُ احد وحدّد العُروض والاطوال لخمسة واربعين موقعًا وعيّن

طوّبض الجبال البالغة ٣٠٠٠ متر فيحقّ لنا ان نطرئ المسيو دي فوكو لفتحه مجالٍ جديد لعلم الجغرافية وأنّنا لفي ريب بين احد امرين أيّها اجدرُ باعجابنا أتلك التحليات البهية المفيدة التي اتانا بها ام إقدامهُ وشجاعتهُ بها اظهرهُ هذا الضابط الفرنسويّ بتضحية نفسه وهو في عنفوان السن لخدمة العلم ولمجد وطنه »

وقد أيّد الجغرافي الانكليزي بودجت ميكن (Budget Meakin) حكمَ المسيو دوفريه بقوله عن دي فوكو « انّ ما قام بهِ الرحّالون قبلهُ بالنسبة الى مساعيهِ الطيّبة لا يُعَدّ الّا كالعاب صبيان »

وليست هذه النتائج العلميّة سوى قسم مما افادهُ شرل دي فوكو عن بلاد مرّاكش فانّ في كتابهِ من الملحوظات عن سكّانها وعوائدهم وطباعهم ما كشف القناع من اهل تلك البلاد في تسنّمها اي بلاد المخزن الخاضعة للسلطان وبلاد الصبا المستقلّة الحرّة فوصف اخلاقهم وآدابهم القوميّة وسلوكهم في امور دينهم وقد رأى في الداخليّة كثيرين لا يكترثون لفرائض الدين قد حوّلوا مساجدهم الى فنادق وراتب امور دنياهم في عيشتهم الاهليّة في معاملتهم للمرأة التي يُنزلونها منزلة الأمة الذليلة وفي ولعهم العظيم باولادهم وفي تفانيهم في سبيل اصدقائهم . لكنّهُ وجد انحطاطاً كبيراً في الآداب بارتكاب قوم منهم الفحشاء جهاراً وبالطمع الاشعبيّ وبالتفاخر في السلب والنهب كما انهُ لحظ بينهم شيوع الخرافات يروّجها لهم علم الدين بعض النصّابين والمشعوذين

وكذلك وصف يهود مرّاكش فقال ان خلاصة دينهم حفظهم ليوم السبت وبعض الصلوات المفروضة عليهم يضربون الصفح تماماً عن وصاياهُ تعالى الشر فيزعمون انها اصبحت من المتانق لا تصلح الّا للاحداث

على ان شرل دي فوكو لا يعف بلاد مرّاكش واهلها كمنتقدٍ وثلّاب ليستهجن لمورهم ويستخفّ بهم بل كطبيب نطاسيّ يبحث عن الداء ليصف الدواء ويكشف على الجرح أملاً بمعالجتهِ وشفائهِ . وما لا يُنكر انهُ منذ ذاك الحين كُلف بحبّ مرّاكش واهلها حتى انها لم تَعُد تخرج من فكرهِ بقيّة أيام حياتهِ واليها وُجّهَ نظرهُ لما يحاول العيشة النسكيّة كما سترى

٥ اهتداء شرل دي فوكو الى نور الايمان

سبق انّ شرل دي فوكو كان لسبب تربيتهِ السيّئة فقدَ نور الايمان وبفقدانهِ

تغلّبت عليهِ النفس الأمّارة فتبع شهواتها . الّا انّ رجوعهُ الى ساحة الحرب ثمّ مباشرتهُ تلك الرحلة الى مجاهل مرّاكش حوّلا عواطفهُ الى ما هو اشرف واجلّ . ومما اثّر فيهِ لشدّ التأثير في بلاد مرّاكش ما رآهُ في معظم مدنها من تعظيم الدين وتكرار الاسم الكريم في افواه اهلها والمجاهرة بالمعتقد الاسلامي في التآذين والحفلات الرسميّة فكان ذلك كمنخاز لضميرهِ اذ يقابل بين موقفهِ الديني وهو المدعي بالرقيّ والتمدّن وهؤلاء الشعوب الذين يعتبرهم بعيدين عن المدنيّة العصريّة . فاخذ يفكّر في دين اجداده ويتذكّر ما سمعهُ من التعاليم في مدرسة الآباء اليسوعيين في سنت جنفياف . فجعل اوّلا يطالع كتب الفلاسفة الاقدمين لعلّه يقتنع بحججهم لكنّ الفلسفة النظريّة دون الصلاة والنعمة قلّما تأتي بفائدة . وانّما استفاد من تلك الدروس انهُ اقلع عن عوائدهِ الذميمة وصرف ذهنهُ الى واجبات الحياة والمعيشة الادبيّة

ولمّا عاد من افريقيّة الى فرنسة سكن بين اهلهِ واقاربهِ في دار اختهِ مادام مراتسيه مع بنات عمهِ وكلّهن من شرفاء فرنسة عريقات بالدين . وكان يتردّد الى بيتهنّ كاهنٌ من ذوي الفضل والبرّ يدعى الاب هوفلين مع بعض مشاهير الكاثوليك . فكان شرل يجد بينهم من اللطف والانس وشواعر الدين ما كان يحبّبهم اليهِ فيستنشق عرف فضائلهم ويحيك مثلهم في قلبهِ وربّما كان يناجي نفسهُ قائلاً : «ما بال هؤلاء الرجال والنساء وهم من نخبة اهل بلادنا فضلاً وذكاء يخضعون لتعليم الايمان الكاثوليكي فاولا انهُ الايمان الحقّ لما اقتسروا نفسهم ليعيشوا بموجب قوانينهِ . فما أحرى بي ان ادرس ديني هذا واتحرّى صحّتهُ فأسير بمقتضى واجباتهِ »

ومن ثمّ عمد شرل الى بعض الكتب الدينيّة وأعمل فيها نظر ذهنهِ فاذا بنور الحقيقة بزغ لهُ وسطعت شموس الايمان الكاثوليكيّ فثبت قلبهُ واندفع يعلّي الى الله لينير بصيرتهُ ويبيّن لهُ ما يطلبهُ منهُ ويهديهِ الى الصراط المستقيم . واذ احسّ بانّ ضميرهُ مُثقل بالاوزار السابقة ادرك ضرورة التوبة والاقرار بخطاياهُ الى كاهن فتردّد حيناً يقدّم رجلاً ويؤخّر اخرى الى ان قام في صباح احد أيام تشرين الاوّل سنة ١٨٨٦ فدخل في كنيسة القديس اوغسطينوس في باريس واذا بالاب هوفلين في كرسيّ الاعتراف فانحنى اليهِ قائلاً :

يا حضرة الاب لا اعرف الايمان فارجوك ان ترشدني

فنظر اليهِ الاب هوقلين فعرفهُ وقال : اجثُ مقرًّا بخطاياك فسوف تؤمن

قال شرل : ما اتيتُ لذلك

قال الكاهن : لا بأس . اعترفْ فانا أرشدك

فشعر دي فوكو انَّ ساعة اهتدائهِ قد قربت وان نور الايمان لا يُضيء في النفس الَّا اذا طهرَتْ من اوزارها . فأقرَّ بآثامهِ خاشعاً مقتاً حتى اذا انتهى من اقرارهِ استملك الايمان على قلبهِ وانقشعت كلّ ظلمات عقلهِ . ولما نهض مأزورًا بحلّة الكاهن سألهُ المرشد : اصائم انت ؟ قال : نعم . قال : اذهب اذن وتناول القربان الاقدس

فاقترب شرل دي فوكو للحال من المائدة المقدَّسة . وخرج بعد ساعة من الكنيسة والقلبُ مفعم سلاماً وفرحاً لم يعهد بهما سابقاً

٦ المرشدي والراهب

قد ظهرت لنا في ما سبق شجاعة دي فوكو وبسالتهُ ورباطة جأشهِ في رحلتهِ الى مرّاكش انما تلك المزايا الحسنة كانت مآثر طبيعيَّة يُعجب بها الناس . امَّا الآن وقد تسلَّطت النعمة على نفس المهتدي فقد عزَّزت تلك الاعمال الطبيعيَّة وحوَّلتها الى فضائل مسيحيَّة سامية بأمت صاحبها الى اوج الكمال

اخذ المهتدي يلازم الصلاة ويواظب على الاسرار المحيية ويغذي نفسهُ بقراءات الكتب التقويَّة فحقرت في عينهِ الدنيا واراد ان يزهد بها . فبعد ان استشار مرشديهِ وتحقَّق الدعوة الالهيَّة هجر العالم وترك ثروتهُ لاختهِ وطلب الترهُّب بين التريبستيين ودخل ديرهم المدعو دير سيِّدة النلوج في اعالي جبال ڤيفاره في ١٥ ك ١ سنة ١٨٩٠

وهذه الرهبنة كما هو معلوم ذات قوانين شاقَّة لما تفرض على ذويها من التقشفات والصيامات والاشغال اليدويَّة مع ممارسة اخصّ الفضائل القاهرة للاميال البشريَّة . فلما انضوى اليها شرل دي فوكو مارس بكل نشاط جميع فرائضها الَّا انَّ الله افتقدهُ بالبيوسة الروحيَّة كما يمتحن اولياءهُ ليزيدهم تجرُّدًا عن نفوسهم وثقةً بهِ تعالى وحدهُ فصبر على محنتهِ واضاف اليها التقشُّفات الصارمة ليقهر اهواء نفسهِ

وكان قلبهُ لا يزال هائماً بحب بلاد الشرق ليعيش فيهِ خاملاً مجهولاً في القفر المُدقع والاتعاب المضنكة فارسلهُ رؤساؤهُ الى ديرهم في اكبس الواقع في حدود سوريَّة في ولاية آطنه على مسافة يومين من الاسكندرونة وكان وصولهُ اليهِ في اواسط

تموز من السنة ١٨٩٠ . وكان هذا الدير حديث العهد لم يتشيَّد الّا منذ ثماني سنوات فينقصهُ كثير من لوازم المعاش وراحة الجسم . فدخلهُ شرل دي فوكو وشاطر رهبانهُ بشظف عيشهم ينام معهم في مسقَّف فوق آخور تنبعث اليهِ روائح البهائم المزعجة ويحتملُ فيهِ شدَّة الحرّ صيفاً وبرد الثلوج المتراكمة على رؤوسهم شتاء ويقضي صلب نهارهِ بأشقّ الاشغال كالزرع والحصاد وقطع الاشجار والبناء

فعاش الاخ ماري البريك ، وهو الاسم الذي اتَّخذهُ يوم ترهبهِ ، كاحد الرهبان البسطاء لا يكاد يخطر على بال احدٍ من ناظريهِ انهُ ذاك الضابط الباسل وكشَّافة البلاد المجهولة والكاتب الذائع الصيت . بل كان قدوةً لاخوتهِ بملازمتهِ اسمى الفضائل الرهبانيَّة وملازمتهِ الصلاة وانقطاعهِ الى الله حتى انَّ رئيسهُ كتب عنهُ انهُ لم يصادف طول حياتهِ رجلاً مثلهُ مستهام الفؤاد في حبّهِ تعالى . وكان اذا رأى اهل تلك البلاد من ارمن وشركس واكراد يترق الى خلاصهم واضرام قلوبهم بحبّهِ تعالى وكان اذا مكَّنتهُ الفرصة يرفع الحاظهم الى خالقهم ويعدل بها عن اباطيل العالم

فتأكَّد الرؤساء انَّ لذاك الراهب دعوةً خصوصيَّة أحبُّوا بعد التروّي في احوالهِ ان يساعدوهُ في تتميمها ولذلك تقدَّموا اليهِ بان ينقطع الى درس اللاهوت استعداداً للكهنوت لعلَّهُ يحقّق آمالهُ فيهِ من خدمة الله وخلاص النفوس فارسلوهُ الى رومية الى ديرهم حيث قضى ثلاث سنوات في الدروس الكهنوتيَّة وهو في سائر اعمالهِ مثال التواضع والتفاني والطاعة لا يحبُّ الّا الاعتزال عن المخلوقات وينفر عن كلّ اكرام ومديح ليعيش لله ومع الله

واذ حان وقتئذٍ زمن إبرازهِ النذور الاحتفاليَّة في رهبانيَّتهِ كشف نفسهُ بكل حرص وتدقيق لرؤسائهِ ليفحصوا قدام الله ما هي مشيئتهُ تعالى بحقّهِ أيبقى في الرهبانيَّة او يعيش في النسك والذلّ في وسط العالم خارجاً عن الدير في الفقر والعوز المدقع والخدمة الحقيرة . فكان جوابهم انَّ الله داعيهِ لهذه العيشة النسكيَّة خارجاً عن الدير . فرأى شرل دي فوكو أن يتبع مشورتهم لئلّا يخالف دعوة الله

٧ الناسك الفلسطيني

في ٦ آذار ١٨٩٧ كنت ترى على باب كنيسة الراهبات الفرنسيسيَّات الكلاريس شاباً في كمال الشباب بزيّ غريب مرتدياً برداء ذي خطوط زرقاء بيضاء سراويلهُ

من القطن الازرق تغطي رأسهُ لبادةٌ على دائرها قماش كالعمامة وفي رجليهِ نعلان عتيقان وقد علّق على زنّارهِ الجلدي سبحةً ذات حبوب ضخمة . فدخل البيعة وجثا امام الهيكل في اسفل الكنيسة وبقي هناك ساعتين لا يُبدي حراكاً فارتابت الاخت البوّابة في امرهِ واخذت تراقبهُ لئلّا يختلس شيئاً من الكنيسة وما كان ذاك الصعلوك الّا الضابط شرل دي فوكو الذي برز بهذا الشعار الذليل ليكفّر عن سالف جهالاتهِ وكبريائهِ

على انّ رئيسة الدير لمّا طلب ان يواجهها والتمس منها ان تقبلهُ كخادم يقضي ساعات نهارهِ على باب الدير في الصلاة والخلوة والقيام بحاجات الراهبات في الخارج ما لبثت ان استشفّت شيئاً من امرهِ لما في محيّاهُ من امارات النعمة والشرف لاسيما بعد أن ألفتْ نظرها الى اصلهِ الشريف احدُ الآباء الفرنسيسيين فلبّت طلبتهُ واقامتهُ واقفاً على الكنيسة ليقوم بنظافتها وخدمة كهنتها . واذ حاولت ان تقدّم لهُ مأوى البستاني في جنينة الدير أبى الّا ان يسكن في كوخٍ هناك ذي اربعة الواح يعلوهُ الآجرّ وتُلقى فيهِ نفايات الدير وكان لا يرضى لاكلهِ وشربهِ الّا بما تأكلهُ الراهبات الفقيرات

فأخذ يصرف نهارهُ بالصلوات المتواترة وبتأجاة الله الساعات الطوال والقراءات الروحيّة في كتب يستعيرها من الدير وتأليف بعض المقالات الروحيّة وكان لا يهمل شيئاً من واجبات وظيفتهِ لاشغال الكنيسة . فكانت الراهبات في البلدة متخذاً اليهِ مثالاً لحياتهِ النسكيّة الحافلة السيد المسيح في الثلثين سنةً من حياتهِ الخفيّة في تلك المدينة عينها

وكان اهل الناصرة لأوّل نظرهم الى خادم الراهبات يستخفّون بهِ وكان صغارهم يصرخون وراءهُ لكنّهم اذ رأوا تقى ذاك الفقير وورعهُ وإحسانهُ الى غيرهِ من الفقراء بطعامهِ جعلوا يلتفتون اليهِ بالاحترام وعظُم في اعينهم . أمّا هو فكان يُسرّ بازدراء العالم والاهانات لا يفكّر الّا بحبّ الله والتجرّد التامّ من المخلوقات . وكان في تلك الاثناء يكتب لاهلهِ في فرنسة رسائل تُشعر بروحهِ هذا الالهيّ وتحمل قرّاءها على تمجيد الله في تقديسهِ

وكانت رئيسة راهبات الكلاريس في القدس سمعت باخبار هذا الفقير الاختياري

في دير اخواتها في الناصرة فاحبت ان تنظره لتحقق صحة ما بلغها عنه فارسلته رئيسة الناصرة الى اورشليم بحجة ارسال مكتوب سري فسافر مطيماً ماشياً على الاقدام مستعطياً في طريقه خبزه . فكانت سيرته في القدس كسيرته في الناصرة بالزهد والتجرد والكفران بالنفس والحب لله حتى اتفق جميع من رآه على انه رجل قديس لا يكترث الا لامور الآخرة وخدمته تعالى عز وجل

على ان رجل الله كان يشعر برغبة عظيمة في خلاص القريب فعرض افكاره على الاب هوڤلين مرشده وطلب مشورته فكان جوابه ان يستعد لقبول الكهنوت فانه بعيشته القشفة وكهنوته يمكنه ان يؤدي لله وللكنيسة خدماً اعظم واجل ويرد الى التوبة نفراً عديدة من الشرقيين حيث دعاه الله الى تبشيرهم

فرأى في هذه المشورة علامة جديدة من مشيئة تعالى ومن وقته ابحر الى فرنسة وبواسطة رئيس الآباء التراپيستيين الذي كان وقف على فضله وارشده الى دعوته نال من يد السيد مرنتلي (M^gr Mantély) نعمة الكهنوت في ٩ حزيران ١٩٠١

٨ عيش الصحراء

أثمرت درجة الكهنوت مزيد اضطرام في قلب الاب شرل دي فوكو ورغبته في بذل نفسه في خدمة الله وصالح القريب . على ان الرب أوحى اليه بان يعدل عن الرجوع الى فلسطين ويسير حيث احرز له مجداً عالياً باكتشافاته في مراكش والصحراء فيعيش هناك بالنسك بين العرب فيرشدهم بمثله الى سواء السبيل والى الحياة الفضلى

فلم يشأ ان يباشر تلك الحياة النسكية الا بعد ان يعرض نيأته على الآباء الروحيين حتى اذا تحققوا ان فكره هذا من الله جرى عليه واخرجه الى حيز الوجود والا يفضل الطاعة على الضحية . فأثر تواضعه هذا ورغبته في اتمام مشيئة الله في السيد ليتنبأ من جمعية المرسلين الافريقيين من الآباء البيض وفي السيد جيرين القاصد الرسولي على بلاد الصحراء فباركا قصده واطلقا له الحرية باتباع الهام الروح القدس . وكذلك الجنرال حاكم الجزائر العام رضي بحلوله في تلك الجهات القاصية . فكان لهذا النبأ بين الضباط الفرنسويين المحافظين على ثغور الجزائر وجنوبي البلاد افضل وقع وقد عرف كثيرون منهم الضابط شرل دي فوكو واطلعوا على اكتشافاته العجيبة

فكانوا يحتفون به حيثما سار ويكرمونهُ ككاهن ناسك بعد ما اشادوا بذكره كعالم وراند للصحراء واحبُّوا ان يرافقوهُ الى آخر حدود الاراضي الفرنسويَّة بل ارادوا ان يبلغوهُ الى ما وراءها الى واحات بني عبَّاس من بلاد الصحراء

وبنو عبَّاس هذه قرية يتراوح عدد سكَّانها بين ١٢٠٠ و ١٥٠٠ نفس اهلها عرب ومولَّدون وعبيد فاحسنوا استقبالهُ اذ عدوهُ كاحد المرابيط النسَّاك . وكان الاب الناسك اتَّخذ للبسهِ قميصاً ابيض بمنطقة من جلد على حقويهِ علَّق عليها سبحةً . فلمَّا احتلَّ بجوارها اختطَّ لهُ دائرةً جعل لها سياجاً واقام في وسطها لهُ مسكناً حقيراً وبقربهِ مصبداً للصلاة عُني ببنيتهِ بعض المهندسين من الجنود الفرنسويين زانوهُ بثنبيح وبعض التصاوير واتَّخذ هناك جنينة صغيرة كان يعتني بزرعها ويستثمر بعض غلَّاتها ويُقوتها لماشيهِ البسيط ولاكرام ضيوفهِ

ومذ ذاك الحين عيَّن الاب دي فوكو لنفسهِ نظاماً لساعات نهارهِ فقسمها بين الصلاة والشغل العقلي واليدوي فيبتدئ نهارهُ قبل الفجر ويقدِّم الذبيحة المقدَّسة ويبقى زمناً طويلاً ساجداً للقربان الاقدس الذي كان لهُ اعظم مؤنس في عزلتهِ

وكان يخصُّ قسماً من نهارهِ للدروس الدينيَّة من اللاهوت الادبيّ والنظري وتأليف بعض الكتب الروحيَّة

وكان يدرس مع ذلك لغات القبائل فيتعمَّق في درس العربيَّة ويمعن النظر في لغة البربر الشائعة في شمالي افريقية . وكان في جواره قبائل أخرى تُعرف بالطوارق لهم لغة خاصَّة فاقبل على درسها وألَّف معجماً ضخماً لتعليمها جعلهُ طوارقيًّا فرنسويًّا (touareg-français)

فكانت دروسهُ هذه تقرِّبهُ الى اهل البلاد فيأتون اليهِ ويحادثونهُ . فما لبث ان احرز ثقتهم واستمالهم بلطفهِ فكانوا يتردَّدون اليهِ بكل شوق ويفاتحونهُ في امورهم ويأخذون منهُ معلومات لم تخطر على بالهم لتحسين زراعتهم وتجارتهم وامورهم الاقتصاديَّة . بل اقام نفسهُ معلماً ومهذباً لصغارهم

وكان في معاملاتهِ هذه يحيد عن التبشير بالدين المسيحيّ ويجتزئ بامثالهِ وحياتهِ الحسنة التي كانت تؤثِّر في تلاميذهِ اكثر من اقوالهِ . وانَّما كان يبثُّ في قلوب سامعيهِ تلك الحكم الذهبيَّة التي يأنس بها ذوو الاستقامة والآداب الغريزيَّة الحسنة . كمعرفة

الخالق وشكر نعمهِ والاتكال عليهِ واحترام وجودهِ في كلّ مكان وكمعاملة القريب بالعدل والانصاف وكالحياد عن المآثم وغير ذلك مما كان يردّده الاب دي فوكو على مسامع اولئك القوم الفطريين فيعمل كلامهُ في قلوبهم ويستصوبون تعليمهُ. ولثقتهم بالاب المتنسك بينهم اتخذوهُ حكماً في مشاكلهم فكانوا يرفعون اليهِ دعاويهم ويرضون بحكمهِ لهم او عليهم لعلمهم بانهُ يقضي دون محاباة بالوجوه ومراعاة للاشخاص. اما المساكين منهم فكان الناسك البارّ لا يردُّهم دون ان يشاطرهم ما لديهِ من القوت ورثّما تخلّى لهم عمّا بقي عندهُ لعوزهِ

وكان الفرنسويُّون لشهرتهِ السابقة وصلاحهِ يتقاطرون الى مسكنهِ ويرتشدون باقوالهِ. وقد ردّ منهم كثيرين الى ممارسة فرائض الدين وكان اذا دعوهُ الى مرافقتهم في بعثاتهم لردّ غارات العدوّ يلبّي دعوتهم فيضمد جراح الصرعى ويدفن موتاهم ويعتني ايضاً بجرحى العدوّ

ولمّا رأى رؤساء الجيش الفرنسويُّون في جهات الجزائر والصحراء ما يؤدّيهِ الاب شرل دي فوكو من الخدم لجنودهم عرضوا عليهِ ان يأتي فيسكن في جهة الجنوب في بلاد هُجّر ليس بعيداً عن طرابلس الغرب حيث كانوا شيّدوا بعض الحصون في وجه قبائل من العصاة. وعلى مسافة يومين من بني عبّاس

فاجاب الى طلبتهم بعد معاينة تلك الناحية اذ وجد فيها ما يحتاج اليهِ لحياتهِ النسكيّة وخدمة الوطنيين. فانتقل معهم الى قرية تُدعى تمنرّست وذلك في السنة ١٩٠٨ وكانت صحّتهُ قد توعّكت فشفي في مقامهِ الجديد حيث بقي الى سنة وفاتهِ

وكانت عيشة الاب دي فوكو في تمنرّست كعيشتهِ في بني عبّاس يحيي الليل بالصلاة ويقدّس نهارهُ بالاعمال التقويّة والاشغال المفيدة. ومن خدمهِ للعلم في تلك المدّة انهُ جمع الحكم والامثال السائرة بين القبائل وكتب ما لحظهُ من اخلاقهم وعاداتهم. كما انهُ كان يدوّن كلّ يوم ما يجري في تلك الجهات من الحوادث في مفكّرة نشر جانباً منها كاتبُ سيرتهِ

ومن مبرّاتهِ عيادتهُ للمرضى من اهل تلك الانحاء فيوزع عليهم الادوية ويفتّشهم في عللهم ويقويهم بذكر الله والالتجاء اليهِ والصبر على محنهِ

اما الاصحاء فكان يسعى جهدهُ بان يفيدهم بسعة علمهِ وخبرتهِ فينذرهم بآداب ...

الهيئة الاجتماعيَّة ووجدان الضمير ويعلّمهم مبادئ علم الصحّة والزراعة ونسج الملابس الصوفيَّة والقطنيَّة . فتلك كانت بشارتهُ بينهم بايانهِ جاعلًا حياتهُ كمرآة دينهِ القويم

وكانت غاية ما يتمنَّى أن ينشئ في الصحراء جمعيَّة رهبانيَّة تتخصَّص على مثالهِ في خدمة اولئك السكَّان فتزيل باعمالها اكثر منها باقوالها اوهامهم وتهذّب طباعهم وترشدهم الى الصلاح وتقرّبهم الى معرفة ربّهم وفاديهم لولا انَّ الظروف حالت دون رغبتهِ فات هناك شهيد محبَّتهِ لتلك الاقطار المهملة وهاك تحرير الخبر

٩ موت رسول الصحراء

انفجر في اوائل آب من السنة ١٩١٤ ذاك البركان الهائل الذي سُمع دويُّهُ الى اقاصي المعمور . انتشبت الحرب الكونيَّة بين الدول المركزيَّة وحلفاء فرنسة فبلغ الخبر بسرعة البرق الى مسامع الاب دي فوكو فشعر بدمهِ الوطني يفور في عروقهِ ولم تمت فيهِ بسالة الضابط القديم على انَّهُ اسكت صوت الطبيعة ليقضي حياتهُ الكهنوتيَّة في خدمة عرب الصحراء فكان وجودهُ بينهم عربوناً للهدوء والسلام . فبقي في مركزهِ معزَّزًا محبوباً يُشار اليهِ بالبنان لسموّ فضلهِ واستمرَّ على ذلك نحو سنتين الى صيف السنة ١٩١٦

فلمَّا دخلت ايطاليـة في الحرب في جانب الحلفاء ارسل الالمان والاتراك من قبلهم رجالًا يثيرون الفتن في طرابلس الغرب على الايطاليين وعلى حدود المستعمرات الفرنسويَّة فاجاب السيّد السنوسي وانصارهُ الى دعوتهم فهاجموا وماجوا وقاموا للغزو فعاثوا في المراكز التي احتلَّها الطليانيُّون فسادًا ثمَّ حوَّلوا النظر الى التخوم الفرنسويَّة فخافوا ان يرتدُّوا عنها خاسرين فصبروا مدَّة الى حين بلغهم انَّ معظم الجنود المرابطين في الحجَر قد استدعتهم الدولة الى حربها في فرنسة فأخلوا كثيرًا من حصونهم وان الناسك « المربوط » الفرنسويّ ظلَّ وحدهُ في تمنرست فوجدوا الفرصة مناسبةً للحملة عليهِ

وكان الفرنسويُّون سبقوا واستدركوا الخطر بتحصين منزل الاب دي فوكو حتى اذا واقعهُ السنوسيُّون يبقى مدَّةً في امان مع خدَمهِ ريثما يأتي الجُند لانقاذهِ

فلمَّا كان يوم الجمعة في غرَّة كانون الاوَّل سنة ١٩١٦ والكاهن رجل الله

مستغرقٌ في صلاته في غسق النهار واذا بفرقة من السنوسيين زحفت الى المنسك المحصَّن ليقبضوا عليه وينهبوا ما في منزله من الذخيرة . فاحاطوا بالمكان ولعلّهم كانوا عادوا بالخيبة لولا احد الحرّاثين الذي كان احسن اليه دي فوكو فصرخ اليه وزعم انهُ آتيه بالبريد فدعاهُ الى الباب ليأخذهُ فانخدع به الكاهن وفتح لهُ ومدَّ يدهُ ليستلم البريد الموهوم فقبض عليها وسحبهُ خارجاً عن حصنه . وكان اسم ذاك الخائن «المدني» . فلمّا رآهُ الغزاة والطوارق الذين من حزبهم خارجاً وهو اعزل ربطوا يديه وراء ظهره دون ان يدافع عن نفسه وتركوهُ في حراسة واحد منهم ثمَّ دخلوا الحصن فنهبوا كل محتوياته ثمَّ احاطوا بأسيرهم فاستنطقوهُ عن الجنود الفرنسويين وما يعرف من احوالهم ومكانهم وعددهم فلم يُخبرْ الاب جواباً ولم تَلُح على وجههِ امارات الخوف او القلق فتهدَّدوهُ ببنادقهم واساؤوا معاملتهُ مدَّة نصف الساعة فلم يُبدِ حراكاً فسألوهُ ان يتلو الشهادة الاسلاميَّة فأبى قائلاً : « اني على اهبة الموت » . فما قال هذا حتى اطلق على رأسه بعضهم بندقيَّتهُ . قال شاهد العيان وهو بولس خادمهُ : فلم اسمع للقتيل صوتاً وما علمتُ بجرحهِ حتى رأيت بعد هنيهةٍ الدم يسيل من رأسه والجسم منحنياً ساقطاً على الحضيض على احد جانبيهِ .

ثمَّ شُغل القتلة بجمع أسلابهم وقتلوا هناك ثلثةً من الجند كانوا ابناء سبيل ثمَّ توارَوا عن العيان . وعند المساء اردع الحرّاثون المجاورون جُثث القتلى في اللحد وتركوا جثَّة الاب دي فوكو على هيئتهِ عند سقوطهِ وهو راكعٌ على ركبتيهِ ويداهُ مربوطتان خلف ظهره . وبعد سنةٍ مرَّ عند قبرهِ الجنرال لابرين (Laperrine) صديقهُ ففتح القبر ليستخرج الجثَّة ويقيم لها مشهداً حسناً فاخذهُ ورفقتهُ العجبُ اذ رأوا جثة الاب كما كانت ساعة موتهِ سالم الاعضاء لم يؤثر الفساد في جسمهِ

هكذا مات موت الشهداء ذاك الرجل العجيب الذي دعاهُ الله ليضيءَ كالسراج المنير في ارض الصحراء المتسكعة في ظلام الجهل ويحيي بين العرب كل فضائل سيّدهِ المسيح مدَّة ستّ عشرة سنة فات يوم الجمعة المخصَّص لاكرام قلب يسوع الذي كانت قصوى غايتهِ ان يمجدهُ بين الشعوب التي كانت تجهل اسمهُ . ولا غرو ان ذكرهُ سيبقى مخلَّداً وانَّ امثالهُ ستبعث في قلوب غيرهِ من الرسل الرغبة في تحقيق آمالهِ لمجد الله وفخر كنيستهِ